﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١﴾ [الحجر: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط نماذج الكفر بآياتِ صدقِ الرّسل، بأحوال المعرضين عنها

لمّا ذكر اللّهُ تعالى تكذيبَ أصحاب الحجر المرسلين أتبعه بذكر الآيات التي تدلُّ على صدقِ مَنْ أُرسِلَ إليهم، لإثباتِ قيامِ الحجّة عليهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُعۡرِضِينَ﴾: أَصْلُ كَلِمَةِ الإعْراضِ مِنَ العَرْضِ وهوَ الظُّهورُ والبُروزُ، يُقالُ: عَرَضَ الشَّيْءُ وعَرِضَ يَعْرِضُ ويَعْرَضُ عَرْضًا، أي: ظَهَرَ وبَرَزَ[1]، وقيلَ أَصْلُها مِنَ العَرْضِ وهوَ: خِلافُ الطّولِ، يُقالُ: اعْتَرَضَ الطَّريقَ إذا سارَ عَرْضًا، وسُمّيَ الرَّفْضُ إعْراضًا؛ لأنَّ الرّافِضَ أَظْهَرَ خِلافَ الشَّيْءِ، أَوْ لأنَّهُ كالواقِفِ عَرْضًا في وجْهِ الشَّيْءِ[2]، والإعراض أيضًا: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفْضُ، تَقولُ: أَعْرَضَ عَنْهُ أي: صَدَّ وتَوَلَّى عنهُ، والمُعْرِضُ: المُتَوَلّي، ويُطْلَقُ الإعْراضُ بِمَعْنَى: الانْصِرافِ عَنِ الشَّيْءِ بِالقَلْبِ، وضِدُّ الإعْراضِ: الإقْبالُ والانْقيادُ والطّاعَةُ[3]، والمقصود بالإعراض في الآية: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفْضُ.

المَعنى الإجْماليُّ:

آيات اللّه تعالى دالّة على الحقِّ، وحجّةٌ على المنكرين المعرضين

بيَّن اللّه تعالى مظاهر هذا التَّكذيب لرسولهم عليه السلام فقال: وآتينا ثمودَ حُجَجَنا وبراهينَنا الدّالّةَ على صِدقِ رَسولِنا صالح عليه السلام فيما دعاهم إليه من عبادة اللّه وحده، والإيمان برسالته، وكانت النّاقة إحدى آيات اللّه البينات: في شربها ودرِّها على خلاف غيرها من النّياق؛ ولذلك أضافها صالح إلى اللّه تعالى حين قال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عرض).

ﭐعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ [الأعراف: 73]، فكانوا عن هذه الآيات كلِّها مُعرضين، بل مُكذِّبين مُعاندين(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة مجيء الآية بالوصل بالواو:

تكذيبُ الرّسل إعراضٌ عن آياتِ الله، وتنكّر لهدايته

لمّا ذكر الله تعالى تكذيب أصحابِ الحجر نبيَّهم صالحًا ، وأفاد أنَّ تكذيب أيِّ رسولٍ بمثابة تكذيب كلِّ المرسلين، وصل الكلامَ بواو العطف للمناسبة في المعنى، أي: كذّبوا بالمرسلين الذين أرسلناهم وأعرضوا عن الآياتِ التي آتيناهم، وليفيد الكلامُ كفرانَهم النِّعمَ العظيمة التي آتاهم الله إيّاها بإعراضِهم عنها على وفقِ الأمم السابقة.

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾، في السّياق:

ظهور قيام الحجّة على الكافرين، بجعل الآياتِ بين أيديهم

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾، لم يقل (أتتهم آياتُنا)؛ لأنَّ صيغة (آتى) تفيد تحصيلَ المأتي عند المفعول، في إشارةٍ إلى تيقّنهم بالآياتِ التي أرسلَها الله لصالح ، إذ أفادت الصّيغة حصولَهم على الآياتِ بمعنى ظهورِ كونِها آياتٍ منَ الله تعالى عندهم، فالدليل على صدقِ الرّسول بين أيديهم، فلا يحتاجون إلى البحثِ عنه، وأكّد هذا بجعل الآياتِ مأتيَّةً لهم، مع أنَّ الآياتِ قد آتاها الله نبيَّهم صالحًا ، ليكونَ الكلامُ أظهرَ في قيامِ الحجَّة عليهم(2).

دلالة الفاعل ضميرًا للعظمة في قولِه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾:

الإتيانُ بالآياتِ، لا يقدر عليه إلّا الله الواحدُ الأحدُ

عُبِّرَ بضمير العظمة في ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾؛ للإشعار بأنَّ الإتيان

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/104، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/53، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 434، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/572.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/210.

بالآيات لا يقدر عليه إلّا الملك الواحد الأحد، والمعنى آتيناهم آياتنا بما لنا منَ العظمة والقدرة على يد رسولِهم صالحٍ عليه السلام، وفي إسناد الفعل إلى ضمير العظمة العائد إلى اللّه تعالى إشعارٌ بأنَّ تكذيبَ المرسلين تكذيبٌ للّه تعالى العظيم المتكبّر المتعال.

فائدة إضافة الآيات إليهم، في قولِه ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾:

المعجزة نعمةٌ مِنَ اللهِ على من أُرسل إليهم الرّسول

أضاف الآياتِ إليهم، وإن كانت قد أتت نبيَّهم صالحًا عليه السلام؛ لأنَّه لمّا كانَ صالحٌ عليه السلام مرسَلًا من ربِّهم إليهم بهذه الآيات كان إيتاؤهم إيّاها على معنى المجاز بذكرِ المآلِ؛ للإشعار بأنَّهم قد تيقّنوا من هذه الآياتِ وأنَها من عند اللّه تعالى، وفي التّعبير بـ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ معنى الامتنان؛ ليفيدَ أنَّهم قد حصلوا عليها وأفادوا منها في حياتِهم ومعاشِهم[1].

نكتة جمع الآياتِ في قولِه ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

التّعبير بصيغة الجمعِ، لتنوّع آياتِ النّاقة وإعجازِها

لمّا كانت الآية التي جعلها اللّه لصالحٍ عليه السلام، وهي النّاقة، مشتملةً عَلَى آياتٍ، أي: في كَيْفيَّةِ خُروجها مِنْ صَخْرَةٍ، وحَياتِها، ورَعْيِها، وشُرْبِها عبّرَ عنها بالآيات، أو هي آياتٌ باعتبار تنوّع دلالتِها على قدرة اللّه وعظمتِه.

دلالة الإضافة إلى ضمير العظمة، في قولِه ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

تعظيمُ المضافِ وتشريفُه لعظمة المضاف إليه

أفادت الإضافة إلى ضمير العظمة تعظيم الآيات وتشريفها، فإنَّ تعظيم المضاف إليه يلحق المضاف.

معنى الفاء في قولِه ﴿فَكَانُواْ﴾:

التّعجيب من حالِ الكافرين، في إعراضهم عن آياتِ المنعم بكلّ النّعم

تفيد الفاء معنى التّرتّب والتّعقيب وأُشربَ فيها معنى المجازاة، أي: ترتّب على إتيانِهم بالآياتِ إعراضُهم عنها، وأنَّ إعراضَهم كان عقيب إتيانِهم بالآياتِ، فكأنَّهم كانوا قد أضمروا في أنفسِهم الإعراض عنها بمجرَّد إتيانِها، ولمّا أشربت الفاء معنى المجازاة،

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/210.

أفاد أنَّ جزاء إنعامِنا عليهم بالآياتِ هو إعراضُهم عنها غير ملتفتين إليها، فأفادَت الفاء بدلالتِها التعجيبَ من حالِهم، إذ قابلوا نعمةَ اللّه العظيمةَ بالإعراضِ عنها.

فائدةُ ذكرِ ﴿فَكَانُواْ﴾ في السّياق المحكم:

لا ينفع تذكيرُ الظّالمين إن صارَ إعراضُهم عن آياتِ اللهِ طبعًا

لم يقل (فأعرضوا عنها) وهو أوجز عبارة، وذلك للإيماءِ إلى أنَّهم كانوا مستمرّين على الإعراضِ عن آياتِ اللّه تعالى حتَّى صارَ الإعراضُ طبعًا لهم لا يتغيَّر ولا يفارقهم.

دلالة التّقديم، في قولِه ﴿عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾:

بيان إعراضِ الظّالمين عن آياتِ الله، وإقبالهم على الدّنيا وزينتِها

تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَنۡهَا﴾ الذي هو معمول خبر ﴿فَكَانُواْ﴾ للتّخصيص، بمعنى أنَّهم كانوا معرضين عن الآيات كلِّها خاصَّة، وأمّا عن نحت البيوت منَ الجبال وزينة الدنيا التي تجرُّ إلى الباطل فكانوا مقبلين إليها كما أنَّ في تقديم المعمولِ رعايةً للفاصلةِ فتتناسب رؤوس الآي[1].

دلالة الضّمير في قولِه ﴿عَنۡهَا﴾:

التّوبيخ على الإعراض، يستحقّه من يوصف بذلك

يعود الضّمير على ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ بما اتّصفت به، والمعنى فكانوا عن الآياتِ التي آتيناهم إيّاها معرضين، للإشعارِ بقبحِ إعراضِهم وتوبيخِهم عليه.

نكتةُ التّعبير بالإعراض عن الآيات:

عدمُ التّفكُّر بآياتِ الله، بعدَ إقبالِها، إعراضٌ عنها

عُبِّرَ بلفظ الإعراض دون غيره، للإشعارِ بأنّهم كأنَّما كانوا يولّون عن الآياتِ مبدينَ عَرَضَهم لها[2]؛ فدلَّ اللفظ على أنَّهم كانوا تاركين للآياتِ مدبرين عنها غير ملتفتين إليها ولا يتفكّرون فيها، بعد أن أتتهم وأقبلت إليهم، فلم يعملوا بما تقتضيه بل كذّبوا بها جميعًا[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/81، والآلوسي، روح المعاني: 7/319.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عرض).
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/210.

نكتةُ التّعبير باسم الفاعل ﴿مُعْرِضِينَ﴾:

رسـوخ الإعـراض، بكثرةِ التّولّي عن آياتِ الله، حجاب عن الحقّ

أفاد التّعبير باسم الفاعل أنَّ الإعراض عن الآياتِ صار وصفًا لهم، ليفيد رسوخهم في الإعراضِ، وأنَّ إعراضَهم عنها كانَ إعراضا كلِّيًّا[1]، ومن شدَّة إعراضهِم وتكذيبِهم عارضوا الآياتِ، ففعلوا بالنّاقة ما فعلوا.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/81، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/87، والبروسوي، روح البيان: 4/483.